

عولمة وسائل الاعلام والتنميط الكوني (الواقع والتحديات)

الباحث: فوزي هادي جواد الهنداوي

المقدمة

أصبحت العولمة نظاما عالميا أو نسقا كونيا بأبعاد تجاوزت دائرة الاقتصاد لتقتحم مجالات أخرى مثل السياسة والفكر والثقافة والاعلام . وفي طريقها لأن تكون نظاما عالميا توسلت العولمة بوسائل عدة لعل من أبرزها توظيف الاعلام لتتجاوز من خلاله الحدود الثقافية والقومية وترسم حدودا جديدة غير مرئية لا تعترف بالخصوصيات الوطنية والهويات الثقافية والحواجز الجغرافية بين الشعوب والبلدان والقارات التي يتشكل منها العالم .

وهكذا سعى الإعلام لنقل وإشاعة وتعميم العولمة وثقافتها عبر العالم مستخدما تقنياته المتطورة وأساليبه ولغته وبراعته الفنية من أجل خلق الأرضية الثقافية والنفسية لتقبلها من قبل الشعوب والجماعات الإنسانية . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية والمهمة الكبيرة كيفت وسائل الاعلام أوضاعها القانونية والاقتصادية والتنظيمية وأعدت تشكيل بنيتها التحتية وخطابها الفكري والسياسي لتبلغ أهدافها وتصل جمهورها العالمي الجديد بأسرع وقت وأدق الأساليب مستفيدة من المعطيات التي طرحتها العولمة ذاتها ومن التطورات التقنية التي أفرزتها ثورة الاتصالات والمعلوماتية التي شهدتها العالم منذ مطلع عقد التسعينات للقرن العشرين والتي مازالت تشهد يوميا المزيد من القفزات والطفرات المتسارعة محولة الكرة الأرضية ليس إلى قرية صغيرة كما توقع ذلك عالم الاتصال المعروف مارشال ماك لوهان بل إلى بيت واحد لا حواجز تفصل حجراته بعضها عن بعض ولا أسرار يخفيها ساكنوه أحدهم عن الآخر .

وتلعب وسائل الإعلام دورا أساسيا وجوهريا في صياغة القيم الإنسانية والاجتماعية وفي تغييرها ، ويتفق معظم علماء الاجتماع المعاصرين على أن ثورة تكنولوجيا عصر المعلومات والعولمة قد غيرتا ليس فقط حقيقة الدولة القومية ، بل السلوكيات والقيم الاجتماعية للبشر ، إن لم تكن قد قلبتها رأسا على عقب ، في الوقت الذي أصبحت فيه قدرة الإنسان غير فعالة على نحو متزايد في السيطرة على الطريقة التي تشكل بها تكنولوجيا المعلومات الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية (1) .

ومما زاد الوضع خطورة تمركز ملكية وسائل الاعلام العالمية في أيدي قلة من الدول والمؤسسات والأفراد الذين أصبح بمقدورهم تشكيل الرأي العام وصياغة أجندة العالم وفقا لمعتقداتهم وقناعاتهم وأولوياتهم ويكمن وراء ذلك محاولات فرض نموذج حضاري معين على العالم بكل جزئيات منظومته الثقافية والفكرية والاجتماعية ، وحتى يسود هذا النموذج العالم لا بد من برمجة الأدمغة وتدمير البنية التحتية للمفاهيم والثقافات الأخرى .

وفي ضوء الدور الخطير للعولمة وتكنولوجيا الاتصال يصبح من الأمور الملحة اليوم دراسة الدور الشامل لتلك التكنولوجيا وما رافقها من عولمة لوسائل الاعلام ، لا بوصفها أداة لتحقيق الهيمنة الثقافية وإنما باعتبارها تجسيدا لهذه الهيمنة ذاتها .

وعولمة الاعلام هي عملية تهدف إلى التعظيم المتسارع والمستمر في قدرات وسائل الاعلام على تجاوز الحدود بين الدول ، والتأثير في المتلقين الذين ينتمون إلى ثقافات متباينة ، وذلك لدعم عملية توحيد ودمج أسواق العالم من ناحية ما وتحقيق مكاسب للأطراف المهيمنة على صناعة الاعلام والاتصال من ناحية ثانية .

وينطوي مفهوم عولمة الاعلام على مجموعة من الأبعاد والمكونات الأساسية هي (2) :

1 - عولمة الاعلام هي عملية متسارعة التغيير لم تتشكل ملامحها النهائية بعد فهي تمر بمرحلة انتقالية وذلك لأنها أحد أبعاد عملية أوسع هي العولمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ونظرا لعدم استقرار أو تبلور عملية العولمة فإن هناك مجموعة من التحديات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تحدد مسار تطور ومستقبل عولمة الاعلام ، فضلا عن أن عولمة الاعلام تعتمد في بعد مهم منها على نتائج ثورة الاتصالات المستمرة في تطوراتها والمرتبطة بالتطبيقات الجديدة أي الأدوات الجديدة التي ستلبي حاجات جديدة(3) .

2 - أن الترابط والتكامل بين مجالات الاعلام وتكنولوجيا الاتصال ومجتمع المعلومات أدى إلى صعوبة تعريف الاعلام أو الاتصال بمعزل عن تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية التي أوجدت وسائل جديدة مرتبطة بالمعلوماتية ومجتمعها الذي لم تتبلور معالمها بعد(4) .

- 3 - افضى النمو الهائل في اقتصاديات الإعلام والاتصالات والمعلومات إلى مزيد من التداخل بين عولمة الإعلام وعولمة الاقتصاد ، فعولمة الإعلام ليس مجرد أداة أيديولوجية بل أصبحت جزءا أصيلا من عولمة الاقتصاد بالنظر إلى الدور الكبير لقطاع الاتصالات والإعلام والمعلومات في اقتصاديات الدول الكبرى والأسواق العالمية حيث يمثل هذا القطاع 40% من الإنتاج الصناعي العالمي ، ويضم أكثر من 60% من اليد العاملة في العالم الصناعي⁽⁵⁾ .
- 4 - توسع الخيارات والبدائل الإعلامية المتاحة أمام الجمهور بعد توفر مئات القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية والصحف والمجلات المحلية والدولية مما يشير إلى أن آليات السوق ورغبة الجمهور هي التي ستقود تطور وسائل الاتصال والإعلام ، أي أن المنافسة ستكون في مصلحة الجمهور الذي سيضمن الحصول علي خدمات إعلامية جديدة تلبي احتياجاته وبأسعار رخيصة .
- 5 - تقلص دور الحكومات والمنظمات الدولية في تنظيم بيئة الإعلام والاتصالات المحلية والدولية لصالح الشركات متعددة الجنسية من خلال الدعوة إلى تغيير التشريعات والنظم التي تعوق التدفق الحر للمعلومات بين الدول ، أو تمنح الحكومات وظائف إعلامية كالتهيئة والرقابة والمنع والمصادرة ، وفي هذا السياق تطرح عولمة الإعلام خصخصة وسائل الإعلام والاتصال وإنهاء دور الدولة في مجالات الإعلام .

مشكلة البحث :

إن التطور الهائل لتقنيات الاتصال المتمثل في تكنولوجيا الحاسوب و برمجياته والأقمار الصناعية و شبكات الألياف الضوئية وشبكة الانترنت أدى إلى انكماش العالم مكانا وزمنا وسقوط الحواجز والحدود بين أجزاءه ، وقد تزامن مع هذه الثورة التقنية عامل اقتصادي مهم ومؤثر هو التوجه نحو عولمة الاقتصاد وما تتطلبه من إسراع في تدفق المعلومات و تركيز أهميتها على اعتبار أن عولمة نظم الإعلام والاتصال هي وسيلة القوى الاقتصادية لعولمة الأسواق من جانب و تنمية النزعات الاستهلاكية ، ووسيلة توزيع صناعة الثقافة و الإعلام من موسيقى و أفلام و برامج إذاعية و تلفزيونية و ألعاب من جانب آخر .

وقد حولت هذه الاعتبارات وسائل الإعلام إلى أداة فاعلة بيد القوى السياسية لتنفيذ أفكارها ونظرياتها و سياساتها و المحافظة علي استقرار موازين القوى في عالم ما بعد الحرب الباردة .

وتدور حاليا معركة علي مستوى العالم حول السيطرة علي وسائل الإعلام وخاصة السمعية و البصرية منها من أجل السيطرة علي طريقة تفكير المواطنين في كل أنحاء العالم . وتقود هذه المعركة الولايات المتحدة الأمريكية بهدف تصدير نمط الحياة الأمريكية والثقافة الشعبية الأمريكية بكل مكوناتها القيمية واللغوية . هذه المعركة الثقافية رفعت العولمة شعارا والإعلام سلاحا لها . وهكذا اكتسح الإنتاج الإعلامي الأمريكي أغلب المجتمعات وفرض قيما و اسسا ثقافية جديدة ومختلفة عن كل ما هو تقليدي في ثقافة المجتمعات . وفي ضوء ذلك أصبح تيار العولمة تهديدا لكل خصوصية وتراث وثقافة خاصة بالمجتمعات و الشعوب .

أن هذه التحديات التي تواجه العالم اليوم ينبغي أن تدفع به إلى التفكير الجدي المنظم باتجاه التفاعل الايجابي معها بحيث يتعامل مع معطياتها لمواكبة العصر في ذات الوقت الذي يتوخى الحذر إزاء مسألة الهوية الثقافية و الخصوصية الوطنية لكل مجتمع و ضرورة الحفاظ علي تماسك بنيته الاجتماعية و قيمه الأخلاقية .

أهمية المشكلة :

- تتجلى أهمية المشكلة في الاعتبارات التالية :
1. تسارع التوجه نحو عولمة وسائل الإعلام و بروز التكتلات الإعلامية الضخمة .
 2. هيمنة و طغيان الإنتاج الإعلامي المعولم والأمريكي منه خاصة في معظم المجتمعات والشعوب في شمال الأرض وجنوبها بما يحمله من قيم و أنماط ورموز خاصة به .
 3. تنامي المواجهة الأوربية و العالمية ضد الهيمنة الإعلامية الأمريكية علي الأسواق الإعلامية و بروز الدعوة إلي التوازن و حماية الذاتية الثقافية لمختلف شعوب العلم .
 4. وقوع الوطن العربي ضحية لعولمة الأعلام التي باتت تهدد الساحة الإعلامية العربية بالاكتماس نتيجة لفقور و عجز وسائل الأعلام العربية عن مواجهة هذا التيار القوي .

تساؤلات البحث :-

- يسعى هذا البحث للإجابة عن التساؤلات التالية :
1. ما حدود الأبعاد و المقاربات العولمية لوسائل الأعلام وما رافق ذلك من ظاهرة الاندماجات و التكتلات الإعلامية .
 2. ما حدود وطبيعة و أهداف الهيمنة الأمريكية علي الساحات الإعلامية في العالم ؟
 3. ما الآثار السلبية للعولمة الأمريكية علي ثقافات الشعوب . وما مدي قدرة تلك الثقافات علي المواجهة ؟

منهج البحث :-

استخدام هذا البحث منهج المسح الوصفي (descriptive survey) باعتباره يسعى إلى وصف طبيعة الأوضاع الراهنة الناتجة عن عولمة الأعلام واندماج مؤسساته و سيطرة الآلة الإعلامية الأمريكية على المشهد الإعلامي العالمي ، وما ينجم عن ذلك من أمركة للمنتجات الإعلامية إذا كانت العولمة قد ارتبطت في الطور الأول من ظهورها بعالم الاقتصاد و المال بشكل خاص ، فان الميل يزداد اليوم في الأوساط الدولية المعنية إلى طرح قضية العولمة في عالم الثقافة ، وذلك لان النتائج الثقافية ليست اقل أهمية من النتائج الاقتصادية للعولمة . ويرى د. برهان غليون أن العولمة تركز على ثلاثة منظومات رئيسية هي (6):

المنظومة الأولى: هي المنظومة المالية المتصلة بالسوق الواحدة لرأس المال و البورصة العالمية الواحدة .

المنظومة الثانية: فهي المنظومة الإعلامية و الاتصالية التي ربطت كل العالم من خلال الصحن الهوائي والتي تتوجه إلى جمهور عالمي أو معولم .

المنظومة الثالثة: تجسدها بشكل واضح شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) التي لغت الحدود السياسية و الخصوصيات الثقافية .

إذن لا يمكن دراسة آثار العولمة و نتائجها دون ربط ذلك بثورة وسائل الاتصال و المعلوماتية و التطورات التقنية المذهلة التي تكمن وراءها ، فتقنيات الاتصالات هي بمثابة الوسائل المادية لتحقيق العولمة ، وهذا أفضي إلي نتيجة مهمة هي أن السيطرة علي العالم لم تعد بحاجة إلي إرسال الجيوش ولا التلاعب بالحكومات ، ولكنه يمكن أن يحصل من خلال السيطرة علي القطاعات و الشبكات الثقافية و الإعلامية و الاقتصادية العولمية و استخدامها لتوزيع رأس المال الاقتصادي و الثقافي و الرمزي ، و إنتاج المواقع التطبيقية الجديدة ، و مركز هذه السيطرة الرئيسي ، هو قطاع الثورة التقنية المعلوماتية و ما يرتبط بها من نخب معولمة . و ما يعزز ذلك هو أن الولايات المتحدة التي تراهن للاحتفاظ بهيمنتها الدولية ، على تحويل شبكات الاتصال العالمية الجديدة إلى سوق تجارية رئيسية لا تفرض على أحد المشاركة في شبكة الانترنت ، ولكنها تقاوم بقوة و حزم كي تبقى على تفوقها التقني و العلمي الذي يسمح لها بالسيطرة على هذه الشبكة ، سواء من خلال الحد من طموح الأطراف الأخرى أو من خلال الاحتفاظ بحصة الأسد في المواد المعلوماتية التي تغذيها و من التجديدات التقنية التي تتحكم بمصيرها .

وهنا لابد من التمييز بين ثقافة العولمة و عولمة الثقافة ، فتقافة العولمة هي التي تسود بالفعل على المستوى العالمي شئنا أم أبينا على الرغم من وجود الخصوصيات لأنها ثقافة ينتجها الواقع و هو سيادة المبادئ الرأسمالية . فالرأسمالية ليست نظاما اقتصاديا فقط بل هي نظام شامل له بعده على الصعيد الثقافي و الاجتماعي و بالتالي سيادة هذه المبادئ تؤدي إلى إخضاع القيم المرتبطة بالثقافات ذات الاصول السابقة على الرأسمالية

وتوظيفها وهذا الأمر ينطبق على بلدان العالم إلا أن التناقضات مختلفة بين هذه الخصوصيات من جانب وسيادة ملامح الثقافة الرأسمالية من جانب آخر وذلك من حيث الكم والكيف بين الشمال والجنوب .

أما عولمة الثقافة فهي مجموعة آليات تؤدي إلى إنتاج مستقبلي لثقافة أخرى مرتبطة بتغيرات جوهرية سواء على أرضية إدارة الاقتصاد وإدارة السياسة والمجتمع ، فهي عملية مستمرة ولفترة طويلة متى تصبح هذه الثقافة الجديدة (عولمة الثقافة) حجرا من أحجار بناء الحضارة أو الثقافة الأخرى المختلفة عن مبادئ المجتمع السائد حاليا(7) .

ويطلق المفكر المغربي د. الجابري على الثقافة التي تسعى العولمة إلى تعميمها وفرضها على الأمم والشعوب الأخرى بثقافة الاختراق التي تسيطر على: المدركات ، المنطق والتشويش على نظام القيم ، وتوجيه الخيال ، وتنميط الذوق وقولبة السلوك .

والهدف تكريس نوع معين في الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع ، معارف إعلانية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة الاختراق ، وثقافة الاختراق تتولى القيام بعملية تسطيح الوعي ، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم ، وهي ثقافة جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلا ، ثقافة إعلانية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي (الإعلان التجاري) والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية) وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ ، أنها ثقافة الاختراق التي تقدمها العولمة بديلا من الصراع الأيديولوجي .

ولا يعني حلول الاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي موت الأيديولوجيا كما يريد المبشرون بالعولمة أن يوهموها الناس ، كلا أن الاختراق الثقافي بالعكس من ذلك محمل بأيديولوجيا معينة هي إيديولوجيا الاختراق ، وهي تختلف عن الأيديولوجيا المتصارعة كالأرسمالية والاشتراكية في كونها لا تقدم مشروعا للمستقبل ، لا تقدم نفسها كخصم لبدل آخر ، تسمية وتقاومه ، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل وشل نشدان التغيير لدي الجماعات والأفراد ، أيديولوجيا الاختراق تقوم على تكريس جملة أو هام ، هي نفسها مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويمكن حصرها في الأوهام الخمسة التالية :

وهم الفردية ، وهم الخيار الشخصي ، وهم الحياء ، وهم الطبيعة البشرية التي لا تتغير ، وهم غياب الصراع الاجتماعي ، ويمكن إيجاز مضمون هذه المسلمات الخمس في عبارة واحدة هي أن الثقافة الإعلامية الجماهيرية الأمريكية هذه تركز أيديولوجيا الفردية المستسلمة ، وهي أيديولوجيا تضرب في الصميم الهوية الثقافية بمستوياتها الثلاثة الفردية والجمعية والوطنية(8) .

وفي زمن الاختراق الثقافي فإن وسيلة السيطرة على الإدراك هي الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي ، وإلي جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إعلاني مثير للإدراك مستفز للانفصال ، حاجب للعقل .

ومن هنا جاء إعطاء كل الأهمية والأولوية للإعلام لإحداث التغييرات المطلوبة على الصعيد الداخلي والعالمي باعتبار أن الجيوبوليتيك أو السياسة منظور إليها من زاوية الجغرافيا ، وبالتالي الهيمنة العالمية ، أصبحت تعني اليوم مراقبة السلطة اللامادية ، سلطة تكنولوجيا الإعلام التي ترسم اليوم الحدود في الفضاء السيبرنتي : حدود المجال الاقتصادي السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة . وهكذا فبدلا من الحدود الثقافية ، الوطنية والقومية ، تطرح أيديولوجيا العولمة حدودا أخرى غير مرئية ، ترسمها الشبكات العالمية قصد الهيمنة على الاقتصاد والفكر والسلوك ، وفي ضوء ذلك لا غرابة أن يكون تلفزيون (CNN) نموذجا لأعلام العولمة الذي يعد أحد أبرز الآليات التنفيذية الفاعلة في فتح الطريق أمام اكتساح ثقافة العولمة لثقافات الأمم والشعوب الأخرى . وهكذا جري إدخال الإعلام في إطار دائرة العولمة فبدأت عمليات عولمة وسائل الإعلام كمعادل موضوعي لعولمة الاقتصاد والسياسة والثقافة .

ويقدم د. عبد بلقرين أبعاد أخرى لتحليل العلاقة بين العولمة والثقافة ونقطة البداية أنه ليس صحيحا أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة ومن ظاهرة الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عالمية عليا جديدة بل أنها بالتعريف فعل (اعتصاب ثقافي) وعدوان رمزي على سائر الثقافات ، أنها الاختراق الذي يجري بالعنف المسلح بالتقانة فيهدد سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها العولمة ، وهو هنا ينبه إلى الفارق بين الثقافات الذي يعني الحوار بين الثقافات ، والاعتراف المتبادل بينهما ، ومنه الاعتراف بحق الاختلاف باعتباره من أقدس حقوق الإنسان ، من ناحية ، والعنف الثقافي الذي ينطوي على الإنكار والإقصاء لثقافة الغير ، وعلى الاستعلاء ، والمركزية الذاتية في مفهومه هي السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات ، بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والثقافة في ميدان تكنولوجيا الاتصال ، وهي التتويج التاريخي لعمليات السيطرة التي بدأت منذ انطلاق الغزو الاستعماري منذ قرون .

ويلاحظ أن هذه السيطرة الثقافية الغربية العامة تنطوي في داخلها على علاقة أخرى من السيطرة . تجعل ثقافات غربية عديدة في موقع تابع للثقافة الأمريكية بالذات . وهي ظاهرة تحتج عليها أوروبا وتقاومها ،

وتعتبرها خطرا يهدد استقلالها وهويتها الثقافية ، ولعل أوضح الأمثلة علي ذلك مقاومة فرنسا خلال مفاوضات الغات ودفاعها عما بات يعرف باسم (الاستثناء الثقافي) (9) .

ويري معظم الباحثين في عالم الجنوب أن ثمة اتجاها سائدا الآن تقوده الولايات المتحدة الأمريكية يدعو إلي انكار التمايز الثقافي والتنوع الحضاري علي اعتبار أن التدفق الإعلامي والثورة المعلوماتية والأدوات الثقافية الأخرى أوجدت ثقافة كونية أصحت تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني . ويبدو جليا من خلال ممارسات عدة أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى بوضوح إلي تبني هذا النهج معتمدة علي تفوقها التقني وهيمنتها السياسية والاقتصادية والعسكرية لضرب مقومات الشخصية الثقافية الذي تعد مدخلا أساسيا للهيمنة الثقافية ، وهذا يقودنا إلي الاعتقاد أن ثقافة العولمة ليست إلا نتاجا لثقافة منظومة الغرب وتحديدًا الولايات المتحدة الأمريكية وليست نتاجا لتفاعل وتفاخر وتناظر الثقافات المختلفة (10) .

ومن المفاهيم التي ارتبطت بالعولمة مفهوم الأمركة أي تعميم النموذج الأمريكي للحياة ، والسلعة أي تعميم قيم السوق علي الفعاليات الثقافية وتحويل الثقافة الي سلعة ، والأمركة ليست ثمرة للعولمة ، كما يرى بعض المفكرين ، ولكنها أحد أركانها ، فالعولمة ليست نظاما عالميا أو نموذجا عالميا للحياة نشأ نتيجة تفاعل طبيعي للثقافات العالمية ، ولكنها نظام جديد من العلاقات بين الثقافات ، نشأ من سياق صراع التكتلات الرأسمالية الكبرى علي الهيمنة في بنيته العميقة ، ويكرس الموقع المتميز للولايات المتحدة فيها ، بقدر ما يعكس المشاركة الرئيسية للرأسمالية الأمريكية في ثورة المعلومات . وتلعب هذه الهيمنة دورا أساسيا في دمج الدوائر الثقافية المختلفة ، وانشاء فضاء ثقافي مشترك قائم فوق الثقافات القومية ، يسمح لمنتجات الثقافة الأمريكية أن تروج وتتنافس منتجات الثقافات الأخرى إلي حد كبير . إذن العولمة تعني بالضرورة الأمركة اذا فهمنا من الأمركة أرجح المساهمة الأمريكية في الانتاج الثقافي المادي والمعنوي الذي يملأ الفضاء العالمي الجديد الذي أنشأته ثورة المعلومات .

وفي ضوء هذا الفهم وهذه المعطيات نستنتج أن سيطرة الثقافة الأمريكية واحتلالها لموقع متفوق ليس بسبب تفوق منظومات قيمها الأخلاقية أو الدينية أو الفنية ولكن لأنها ثقافة المجتمعات المسيطرة ، أي نتيجة للسيطرة المادية سواء كانت عسكرية ، اقتصادية ، سياسية أو جميعها معا ، وهذا يعني أنه ليس لهذه السيطرة أي مضمون أخلاقي أو ثقافي متميز (11) .

وترى الاستراتيجية السياسية الأمريكية ان من حقها تسويق ثقافتها إلي شعوب العالم من خلال السيطرة الإعلامية والمعلوماتية كخطوة تمهد وتخدم تحقيق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية .
ويدعم هذا التوجه العديد من المنظرين والمفكرين الأمريكيين حيث يشير بريجنسكي إلي ضرورة خوض المعركة الأيدولوجية علي كل الساحات بدءا من حقوق الإنسان وصولا إلي تصدير نمط الحياة الأمريكية من خلال استثمار تكنولوجيا الاتصال والاستفادة القصوى من التفوق الأمريكي فيها (12) .

ويوضح اثنان من الخبراء الأمريكيين البارزين هما جوزيف تي عميد كلية كيندي في هارفرد ووليام أوبنز النائب السابق لرئيس لجنة رئاسة الأركان في الجيش الأمريكي عن هذا التوجه بقولهما ((أن القرن الحادي والعشرين وليس القرن العشرين هو الذي يمثل عصر التفوق الأمريكي لأن البلد الأكثر قدرة علي قيادة ثورة المعلومات هو الذي سيصبح البلد الأقوى ، وذلك البلد في المستقبل المنظور هو الولايات المتحدة التي ستزداد قدرتها علي جمع المعلومات ومعالجتها والتحكم فيها وتوزيعها أكثر فأكثر خلال القرن الحالي ...)) (13)

وفي ضوء ذلك يتضح أن الإعلام والمعلوماتية قد أصبحا من أخطر آليات السيطرة الأمريكية في عالم ما بعد الحرب الباردة حيث تحول الإعلام ولاسيما المرئي والمسموع إلي قوة فاعلة وحاسمة في تشكيل الرأي العام وقوة مقتدرة تساهم في تغيير شروط اللعبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويرى البعض أن الانتقال العسير من ثنائية الاستقطاب الدولي إلي أحاديته ما كان ليتم لو لم يتدخل الإعلام والمعلوماتية في عملية الانتقال هذه ، حيث كان الإعلام في مقدمة الأسلحة التي نقلت العالم إلي طور جديد تبدلت معه انظمة القيم علي كل المستويات ، بل حتي الجانب المعرفي الفلسفي الذي سعت الولايات المتحدة إلي توظيفه ليرسخ انتصارها العسكري والسياسي في حرب الخليج كان الاعلام رائده وعامله المؤسسي ولا ينسى منظرو الأمركة الدور الذي لعبته العديد من المؤسسات الأمريكية في التسويق الواسع النطاق لمقولة (نهاية التاريخ) التي اطلقها الكاتب الأمريكي الياباني الأصل فرانسيس فوكاياما، ومن بعد مقولة (صراع الحضارات) لصمويل هانتغتون.

وهكذا فإن الأمركة التي تنتشر أحيانا بستانر العولمة قد ظهرت كمعادل ثقافي وأيدولوجي لثورة الإعلام والمعلوماتية ، ولم تكن فريضة مجتمع الإعلام العالمي سوى المرتكز النظري لهذا المعادل ، فالثورة الإعلامية تعد وجها أساسيا من أوجه العولمة التي أريد لها أن تتجلي بصورة أكثر حدة في مجالي الاقتصاد والإعلام ، فهذه الثورة هي معطي تاريخي وترجمة منطقية للمال الذي بلغته تطورات رأس المال علي النطاق العالمي ، وفي ضوء ذلك يمكن القول أن الثورة الإعلامية هي الرمز الظاهرة للعولمة التي ما كان لها أن تكون بصورتها الراهنة لولا وسائل الاعلام ، وهذا يفسر بوضوح عوامل سيطرة الشركات المتعددة الجنسية علي الإعلام في

العالم من أجل نشر وتسويق انماط الحياة الرأسمالية والليبرالية ، فضلا علي توظيف وسائل الإعلام في في الحروب التقليدية كما فعلت الولايات المتحدة في حرب الخليج والحرب الباردة(14) .

وتعتبر الثقافة من أكثر الآليات العولمية إشكالية وصعوبة في مساراتها التوسعية ، وتحتل الأهمية القصوى في استراتيجية وتكتيك الأمريكية علي وجه التحديد ، فعولمة الثقافة عبر وسائل الإعلام تشكل الهاجس الرئيسي للمؤسسة السياسية الأمريكية ذلك لأن ثقافة أي مجتمع مرهونة بعقول ابنائه وانماط وعيهم وقوة إرادتهم ومناعتهم في مواجهة ثقافة الآخر المعولم ورفضها ، والثقافة هنا بمنزلة الحصن الدفاعي الأخير لوجود أي أمة أو هوية قومية ، وبالتالي فإن أمركتها ليس بالمسألة السهلة(15) .

ويشتغل الخطاب الثقافي الأمريكي عبر آليات الإعلام علي خلق قنوات واعتقادات بين المجتمعات الدولية عن ما يسمي (بمجمعات الأطراف) ومؤداها التسليم بنمط الحياة الأمريكية كقدر لا مناص منه حيث يري دانيال بيرتون أحد البارزين في قطاع الاتصالات (أن الولايات المتحدة بصفتها رائدة في اقتصاد الشبكات سوف ترسم تطور هذا الاقتصاد ، ذلك أنه ليس هناك أية دولة أخرى في العالم تملك المؤهلات اللازمة لتواجه تطوره) ، فهناك وجود برمجي هائل ، ومصانع مواد علي مستوي دولي وصناعة ديناميكية ذات محتوى جيد ، وقطاع اتصالات كامل الخصخصة وقاعدة لرأسمال جسور وسوق عمل مرن ، ونظام جامعي لا نظير له ، إننا في النهاية نتجه نحو عالم للشبكات يتكون من مجتمعات إلكترونية تجاريا وثقافيا ، عالم يعمل علي تدعيم مكانة الولايات المتحدة كأمة بين الأمم الأخرى ، ولكنها في نفس الوقت ، وعلي النقيض من ذلك ، أمة تعمل علي تفكيك نظام الأمة - الدولة(16) .

وكانت بداية التسعينات ذروة ما وصلت إليه التجربة الأمريكية لجهة نزع القيم التي تقوم عليها مبادئ الدولة - الأمة ، لتنتقل بعد ذلك إلى زمن الهيمنة علي العالم من أجل تشييد ما يعرف بالمجتمع ما بعد العصر الحديث ، وكان بدايتها أن تؤدي الشبكة الإعلامية الهائلة مهمتها الكبرى في تفكيك أنظمة القيم في العالم ، فالمسألة بالنسبة السياسية الأمريكية لا تتعلق بالاخلاقيات المجردة ، وإنما أساسا وقيل أي شيء بملائمة النشاط الإعلامي والثقافة المنتجة في سياق مع الدرجة التي بلغها تطور شبكات المصالح والنفوذ في العالم ، لذا فإن الآليات الإعلامية تنقصد بشكل منهجي ومعقد إعادة تشكيل الوعي الجماعي العالمي وتكييفه علي نحو يناسب حاجات الإمبريالية المفتوحة ، فتورة التكنولوجيا العالمية كما يؤكد الكاتب الفرنسي اخباسيو رامونيه تتطلع إلي إحلال الحاسوب محل العقل البشري ، وعليه فإن التكنولوجيا التي انجبتها الغرب لم تكن بريئة من غاياتها السياسية ، كذلك فإن ثورة المعلومات لن تكون بعيدة عن التوظيف السياسي(17) .

إن العولمة الإعلامية باتت تؤسس وقائع سلبية علي هوية المجتمعات وقيمها الحضارية وثقافتها القومية ، وإذا كانت الشركات متعددة الجنسية تحاول عبر الإعلام العالمي تعديل الهويات والثقافات فإنها عبر الإعلام نفسه تمارس اليوم اشكالا من البرامج ووسائل التسلية تؤلف في مجموعها قوة معنوية وإكراهية للقبول بقيم الشركات وأنماط السلوك الجماهيري التي تنتشر في العالم أجمع .

فالعولمة قد ادخلت الثقافة في ارتجاج معلوماتي ازاحها عن موروثها ومشكلات شعوبها الآنية وقذف بها في آتون مفاهيم جديدة لا تتوافق في كثير منها مع تطلعات الشعوب ، علاوة علي إلغائها لكثير من المفاهيم الثقافية الخاصة واحلالها مقولات عن غاية التاريخ واختزال الثقافة وطمس الحضارات وتعميم قيم تنزع مواطنة الإنسان وتلغي ميزته القومية لتدمجه في أفق جديدة تنتكر لثوابت مقبولة من الشعوب .

ويري الجابري أن العولمة هي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي في محل الصراع الأيدولوجي وهي إرادة للهيمنة وبالتالي قمع واقصاء للخصوصي كما هي احتواء العالم(18) .

إن استراتيجية توحيد الأنماط الاستهلاكية والدوقية عن طريق تحطيم الحواجز بين مرسل الرسالة الإعلامية ومستقبلها لا تكون إلا عن طريق الغزو الثقافي علي أوسع نطاق ، فالواقع الثقافي الدولي الراهن الذي برزت ملامحه مع انتشار البث الإعلامي عبر الأقمار الصناعية والذي اتضحت توجهاته بعد انفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم يكرس الآن استراتيجية ثقافية مؤداها تحول التبعية الثقافية والإعلامية إلي عملية تكريس وترسيخ لثقافة الاختراق وذلك من خلال محطات البث التلفزيونية الفضائية ووسائل الإعلام المعولمة ، الأمر الذي سيؤدي إلي نتائج متباينة ضارة في جوانب كثيرة منها بالثقافات الوطنية ابتداء من الممارسات والسلوك اليومي إلي سلم القيم ونمط الحياة مما يغير شخصية تلك المجتمعات بإعادة صياغتها علي نمط كوني ، لذا فإن وسائل الإعلام الأمريكية خاصة مصممة على إزالة الحدود وسير الأغوار وفرض الثقافة الواحدة ، كما أن تشابك العلاقات الدولية بين البنية الاقتصادية والسياسية والثقافية في هذا العصر جعل الاجتياح الثقافي والإعلامي جزء من عملية السيطرة العالمية .

إن من أكبر التحديات التي تواجه وسائل الإعلام في العالم تكمن في الوزن الكبير الذي تحتله وسائل الإعلام الأمريكية علي طريق الاشتراك ، والتي يدعم حضورها العالمي استعمالها اللغة الانكليزية ، وهي اللغة الأكثر استعمالا علي شبكة الانترنت .

- 1) د. سليمان العسكري ، إعلام العولمة قيم جديدة أم انكفاء علي الذات ، مجلة العربي ، الكويت ، العدد 517 ، ديسمبر 2001 .
- 2) د. محمد شومان ، عولمة الإعلام والهوية الثقافية العربية ، أبحاث ندوة العولمة ، طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، 1998 ، ص 84 .
- 3) بيل غيتس ، المعلوماتية بعد الانترنت ، ترجمة عبد السلام رضوان ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2000 ، ص 9 .
- 4) محمود علم الدين ، ثورة المعلومات ووسائل الاتصال : التأثيرات السياسية لتكنولوجيا الاتصال ، مجلة السياسة الدولية ، القاهرة ، يناير 1996 ، ص 102 .
- 5) المهدي المنجرة ، الحرب الحضارية الاولى ، مستقبل الماضي وماضي المستقبل ، الدار البيضاء : عيون ، 1991 ، ص 279 .
- 6) د. برهان غليون وسمير أمين ، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، دمشق : دار الفكر ، 1999 ، ص 16-17 .
- 7) د. سمير أمين ، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، مجلة الوفاق العربي ، تونس ، العدد 6 ديسمبر 1999 .
- 8) د. محمد عابد الجابري ، العولمة والهوية الثقافية ، عشر طروحات ، ورقة بحثية مقدمة إلي ندوة العرب والعولمة ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ديسمبر 1997 .
- 9) د. عبد الإله بلقزيز ، العولمة والهوية الثقافية ، ورقة بحثية مقدمة إلي ندوة العرب والعولمة ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ديسمبر 1997 .
- 10) د. باسل حسين ، عالم الجنوب بين مطرقة العولمة وسندان صراع الحضارات ، جريدة العرب العالمية ، لندن 23-11-1999 .
- 11) د. برهان غليون ، مرجع سابق ، ص 49 .
- 12) زينغيو بريجنسكي ، الاستراتيجية الأمريكية في العصر الإلكتروني ، ترجمة د. محبوب عمر ، القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 1988 ، ص 50 .
- 13) Joseph s , Nye , in Foreign Affairs , 3 , March , April , 1996 , N 106 .
- 14) علي الامين ، خطاب للسلطة بايديولوجيا مستترة ، مجلة الشاهد ، نيقوسيا 162 ، فبراير 1999 ، ص 75 .
- 15) عبد الله ابو راشد ، عولمة العالم مهمة امريكية كبرى ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد 273 ، يوليو 1999 ، ص 128 .
- 16) هربرت شيلر ، الرعب الإعلامي – من شؤون الرئاسة في واشنطن ، لوموند ديبلوماتيك – الطبعة العربية ، أغسطس 1997 .
- 17) اخباسيو رامونيه ، جحيم الإعلام ، لوموند ديبلوماتيك – الطبعة العربية 1997 .
- 18) د. محمد عابد الجابري ، مرجع سابق .